في الانتظار

د. ابتهال عبدالعزيز الخطيب

لا أدري إن كانت السياسة بمجملها فكراً يخالف المنطق، ولكن تأتي الكثير من الأحداث والقرارات السياسية حولنا لتتعارك مع العقلانية وتتصارع مع عملية الاستنتاج المنطقي لهذه القرارات، ونعلن كمجموعة 29 عن المؤتمر الأول لعديمي الجنسية، الذي أقيم يومي 15 و16 أبريل، قبل موعده بأكثر من شهر في وسائل الإعلام والتواصل الاجتماعي، ليأتي قرار منع المؤتمر في صباح يوم الافتتاح ذاته. الاستنتاج المنطقي: الحكومة تبتغي التشويش على القائمين على المؤتمر ووضعهم في مأزق وإلا لتقدمت بخطاب المنع في أي يوم سابق على مدى الشهر الذي كان المؤتمر فيه معلناً للجميع.

في اليوم الأول للمؤتمر، يأتي خطاب المنع محملاً بحجة عدم إشهار مجموعة 29، لتأتي جمعية الخريجين بإقدامها المعهود فتربط المؤتمر بكينونتها وتعلنه نشاطها، ليأتي اليوم الثاني للمؤتمر حاملاً خطاب المنع الثاني قائلاً باستمرار منع المؤتمر بحجة أن موضوعه لا يدخل ضمن اختصاصات جمعية الخريجين، ليجتمع بعض أعضاء مجلس الإدارة، وبكل هدوء يستخرجون من النظام الأساسي ما يشير وبمباشرة لاختصاص الجمعية، والذي تم تفعيله في العديد من الندوات والأنشطة السابقة حول موضوع البدون في مقر الجمعية، الاستنتاج المنطقي: الحكومة تختلق أعذاراً وأسباباً لتخويف القائمين على المؤتمر ومحاولة إرباكهم وإلا لنص الخطاب من أول يوم على كافة الأسباب، لا أن يرسل خطاب تلو الآخر بأسباب مختلفة، وكأن الحكومة تجرب حظها في تخويف المنظمين.

ما حدث مكشوف جداً، وساذج جداً، أي إنسان مهما بلغ صغر سنه أو قلة خبرته يمكنه أن يصطاد المغزى من تأخر تعامل الحكومة مع المؤتمر إلى يوم افتتاحه ومن إرسال رسائل محملة بأسباب مختلفة على يومين متتاليين. جهد ومراسلات وورق ضائع، كان يمكن أن تستغل كلها لأخذ خطوات في هذه القضية الإنسانية، فهذه المحاولات التي تذكر بالخطط السياسية القديمة التي كانت تنجح أحياناً مع غياب وسائل التواصل وكون الحكومة هي مصدر الإعلان والإخبار الوحيدين، ما عادت ناجحة في هذا الزمان، بل هي مؤذية جداً للصورة الحكومية التي ومع كل قرار من هذه القرارات تهتز وتتداخل خطوطها. أما كان الأجدر لو أن الحكومة تجاوبت مع النداء المدني، فجاءت محملة بممثلها لتناقش وتعرض معلوماتها؟ ألم تكن تلك فرصة سانحة لممثل عن الجهاز المركزي ليعرض حقائقه وأرقامه ويستعرض حلوله وخطته؟ ما حدث يشير منطقياً إلى أحد هذه الاستنتاجات: الحكومة ليس لديها رغبة في حل القضية أو الحكومة ليس لديها خطة يمكن عرضها لحل القضية، أو الحكومة تعتقد أن المجتمع المدني يدس بوزه فيما لا يخصه، فالحقوق الإنسانية من أول المأكل والمشرب إلى حق الانتماء والتوطين هي شؤون سياسية ليس للشعب أن يتحدث فيها أو يدافع عن المحرومين منها، أو كل ما سبق؟

الحق أقول كنا نتوقع أفضل مما كان، تعاملاً أفضل، رد فعل أفضل، تواصلاً أفضل، كنا نتوقع، بعد كل نداءاتنا المستمرة عبر وسائل الإعلام المختلفة بمد أيادينا للحكومة وبضرورة مشاركتها، أن تظهر الحكومة على الأقل شيئاً من الاحترام لحقنا المدني في التعامل مع القضية، في حق الشعب ومؤسساته في أن يتحاور بشأن موضوع يؤثر في كل جوانب حياته ويشكل عاملا مؤثرا، قد يكون الأكثر تأثيراً، في مستقبله، إلا أن ما ظهر كان شيئاً آخر، وليته ما ظهر.

ما زلنا في مجموعة 29 ننتظر يداً حكومية ممدوة للتعامل مع القضية، لمحاولة التوصل إلى حلول لها، لإنقاذ الكويت من العنصرية والتقسيم، للحد من خسائرها في ضياع أبناء لها على أرضها مؤهلين لخدمتها بحبهم وقدراتهم وخبراتهم، ما زلنا ننتظر، لكننا لا ننتظر وقوفاً، إنما ننتظر ونحن نعدو نحو هذا الحلم الرائق باستتباب الإنسانية والعدالة واحترام الإنسان، الوقت يمر والإنسان يضيع والعمر يهدر، لذا ننتظر ونحن نعدو، ننتظركم بكل إمكاناتكم أن تبدؤوا العدو، وأن تسبقونا، إلى حيث إغلاق الملف واستتباب الأمن واحترام الإنسان.

كمال درويش*

حتمية سرد السياسة الاقتصادية

PROJECT SYNDICATE
AN ASSOCIATION OF NEWSPAPERS AROUND THE WORLD

كانت أفضل نصيحة تلقيتها عندما توليت مسؤولية صنع السياسات في تركيا قبل أكثر من عشرة أعوام تتلخص في ضرورة "إنفاق الكثير من الوقت والجهد والرعاية لتطوير ونقل السرد اللازم لدعم البرنامج السياسي الذي تريد له النجاح". فكلما كانت هذه السياسة الاقتصادية عُرضة لقدر أعظم من المناقشة العامة- أي كلما كانت الديمقراطية أكثر رسوخا- كان السرد السياسي أكثر أهمية.

وتشكل الأزمة التي يواجهها الاتحاد الأوروبي ومنطقة اليورو مثالاً واضحاً للحاجة إلى سرد قادر على تفسير السياسة العامة وتوليد الدعم السياسي لها، ولا يكون السرد الناجح مفرطاً في التعقيد أو التبسيط، بل لا بد أن يأسر مخيلة الناس، ويعالج هموم الجماهير، ويولد أملاً واقعيا، فالناخبون يستشعرون عادة الشعبوية الرخيصة.

والواقع أن رئيس البنك المركزي الأوروبي ماريو دراجي قدَّم مثل هذا السرد للأسواق المالية في شهر يوليو الماضي، فقال إن البنك المركزي الأوروبي سوف يقوم بكل ما يلزم لمنع تفكك اليورو، مضيفاً ببساطة: "صدقوني، سوف يكون ذلك كافيا".

بهذه الجملة، أزاح دراجي خطر إعادة التقييم الذي كان عند أعلى مستوياته في حالة اليونان، ولكنه كان يدفع تكاليف الاقتراض في إسبانيا وإيطاليا والبرتغال أيضاً إلى الارتفاع، ولم تكن الرسالة شعبوية، لأن البنك المركزي الأوروبي يملك حقاً القوة اللازمة لشراء الكم الكافي من السندات السيادية في السوق الثانوية لوضع سقف لأسعار الفائدة، على الأقل لعدة أشهر. إن محافظي البنوك المركزية قادرون بشكل أكثر عموماً عادة على توفير أشكال قصيرة أو متوسطة الأمد من السرد للأسواق المالية. كما قدم رئيس مجلس الاحتياطي الفيدرالي الأميركي بن برنانكي تعهداً خاصاً بأن أسعار الفائدة القصيرة الأجل في الولايات المتحدة سوف تظل منخفضة للغاية، ومؤخراً قدم رئيس بنك اليابان الجديد هاروهيكو كورودا نسخة أخرى من هذا التعهد عندما قال إنه سوف يضاعف المعروض من النقود حتى يرتفع التضخم إلى 2%.

وفي حين يستطيع محافظو البنوك المركزية تقديم مثل هذا السرد للأسواق المالية، فإن الزعماء السياسيين هم الذين يتعين عليهم أن يقدموا الرسائل الاقتصادية الاجتماعية الكلية التي تشجع الاستثمار الحقيقي الطويل الأجل، والدعم الانتخابي للإصلاح، والأمل في المستقبل. إن كيمياء البنك المركزي، على حد تعبير الصحافي الأميركي نيل إروين في كتابه الجديد، ليست بلا حدود.

تحتاج أوروبا بشكل خاص إلى سرد قادر على بث الأمل في الأمد البعيد في التعافي الحقيقي، وتقترب فرنسا من منطقة الخطر، وحتى نمو الناتج المحلي الإجمالي في ألمانيا انخفض إلى أقل من 1% سنويا. ومن ناحية أخرى، لا يقدم تخفيف الفوارق في أسعار الفائدة على الديون السيادية الارتياح المطلوب لجيش متنام من العاطلين عن العمل في جنوب أوروبا، حيث ارتفعت معدلات البطالة بين الشباب إلى عنان السماء- نحو 60% في اليونان وإسبانيا، و40% تقريباً في إيطاليا.

وينبغي لهذا السرد أن يجيب عن ثلاثة أسئلة أساسية، كيف يمكن إصلاح النموذج الأوروبي من التضامن والأمن الاجتماعي القوي مع الحفاظ على استمراره؟ وكيف يمكن إحياء النمو الاقتصادي ودعمه في مختلف أنحاء الاتحاد الأوروبي؟ وكيف تستطيع مؤسسات أوروبا أن تعمل بقدر معزز من الشرعية لاستيعاب الدول التي تشترك في اليورو وغيرها التي احتفظت بعملاتها الوطنية؟ بادئ ذي بدء، لابد من ثورة في تنظيم العمل، والتعلم، والترفيه. وينبغي للتضامن الاجتماعي، الذي يشكل ضرورة أساسية للهوية الأوروبية، أن يشمل حياة عاملة أطول، ولكن أيضاً المزيد من تقاسم العمل، وتعليم البالغين، ومتوسط أسابيع عمل أقصر (وخاصة مع الاقتراب من سن التقاعد).

ومثل هذه المرونة تتطلب موافقة الجميع: فيتعين على الموظفين أن يتكيفوا مع المتطلبات المتغيرة؛ ويتعين على أصحاب العمل أن يعيدوا تنظيم مؤسساتهم بحيث تسمح بالمزيد من تقاسم العمل، والعمل من المنزل، وفترات التعليم؛ ويتعين على الحكومات أن تعمل على إصلاح النظام الضريبي، ودعم الدخل، والتنظيمات من أجل الترويج لـ"ثورة تضامن مرنة" تشجع الاختيار الشخصي وتحمل المسؤولية، مع استمرار الالتزام بالتماسك الاجتماعي. ومن الممكن أن يؤدي هذا إلى مستقبل أفضل للجميع، مع اكتساب المواطنين للمزيد من القدرة على الوصول إلى التعليم للبالغين، والتمتع بقدر أكبر من وقت الفراغ لملاحقة الاهتمامات الشخصية، والحفاظ على الإنتاج والمشاركة المهنية لفترة أطول من حياتهم التي ينعمون فيها بالصحة.

إن أوروبا لا تحتاج إلى تحقيق نفس معدلات النمو الاقتصادي الآسيوية، فهي قادرة على تأمين الوظائف اللائقة والازدهار، بمعدل نمو سنوي مستمر يبلغ نحو 2%. ولتحقيق هذه الغاية، فلا ينبغي للساسة أن يخبروا الناخبين الألمان أن موارد بلادهم سوف تتدفق إلى الأبد إلى إسبانيا، فهم يريدون أن يسمعوا أن أجورهم سوف ترتفع بضعف معدل الماضي القريب من دون المجازفة بارتفاع معدلات التضخم أو حدوث عجز في الحساب الجاري، لأن ألمانيا لديها أضخم فائض خارجي على مستوى العالم.

ولابد من فتح صناعات قطاع الخدمات في مختلف أنحاء الاتحاد الأوروبي. ويتعين على الدول التي تتمتع بمواقف مالية أكثر قوة أن تأخذ زمام المبادرة في برنامج كبير لترقية المهارات على مستوى أوروبا بالكامل. ولابد من مضاعفة عدد المنح الدراسية في عموم أوروبا. وينبغي للبرامج المدرسية في كل مكان أن تستهدف تعليم وتوعية مواطنين يتحدثون ثلاث لغات.

ولابد فضلاً عن ذلك من إنشاء نظام مصرفي أوروبي كامل يتمتع بموارد مشتركة للحل، ومن دون تأخير. وينبغي لبنك الاستثمار الأوروبي، الذي تلقى زيادة رأسمالية كبيرة في عام 2012، أن يضيف برنامجا ضخما لدعم الاستثمار في الشركات المتوسطة الحجم، في ظل إعانات دعم يتم تمويلها من الميزانية الأوروبية لتشجيع المتقدمين للعمل لأول مرة لفترة محدودة. ولابد أن يكون توفير الوظائف والتدريب للشباب في قلب ميثاق النمو الجديد، وأن تمضي المشاريع قدماً على "وضع الأزمة" وليس وفقاً لأسلوب العمل كالمعتاد.

وأخيرا، في حين يحتاج الاتحاد النقدي بوضوح إلى قدر أعظم من تقاسم السيادة، فلابد أن تنشأ أيضا "أوروبا الأكبر" التي تضم المملكة المتحدة وغيرها من البلدان. وهذا يعني ضمناً ضرورة وجود مؤسسات ذات مستويين ويمكنها استيعاب نوعين من البلدان: الملتحقة بعضوية اليورو، وتلك التي تفضل الاحتفاظ بسيادتها النقدية في أوروبا الأكبر المقامة حول سوق مشتركة نابضة بالحياة وقيم ديمقراطية مشتركة.

لابد من تحقيق هذه الرؤى المترابطة إذا كان لأوروبا أن تعود إلى الازدهار من جديد. والواقع أن هذه الرؤى مجتمعة تشكل سرداً مقنعاً ينبغي لزعماء أوروبا أن يعملوا على تفصيله وتوضيحه.

* وزير الشؤون الاقتصادية التركي السابق، والمدير الإداري لبرنامج الأمم المتحدة الإنمائي سابقا، ونائب رئيس مؤسسة بروكنجز حاليا.
«بروجيكت سنديكيت» بالاتفاق مع «الجريدة»

من جديد... سلمية الحراك الشعبي شرط لنجاحه

د. بدر الديحاني
dai7aani@gmail.com

عملية التغيير الاجتماعي والسياسي، كما ذكرنا غير مرة، لا تتم بمجرد الرغبة في التغيير، بل إنها تتطلب توافر ظروف موضوعية وذاتية ناضجة ومكتملة، بعضها يحتاج وقتاً وصبراً طويلين لكي يصبح جاهزاً، وكلما كانت أدوات التغيير، كالاحتجاجات والمسيرات والمظاهرات سلمية، ساعد ذلك في سرعة تهيئة البيئة المناسبة لعملية التغيير، فأعمال الشغب لا تؤدي إلى أي نتائج إيجابية إطلاقاً، بل على العكس من ذلك تماما فنتائجها سلبية على الدوام.

فضلا عن أن قوى الفساد المؤسسي والقوى المعادية للتغيير تلجأ أحياناً كثيرة إلى افتعال أعمال شغب تنسبها زوراً وبهتاناً إلى قوى التغيير؛ لكي تشوه صورتها أمام الرأي العام المحلي والدولي، وتخلق وضعاً يمكّنها من عرقلة عملية التغيير السياسي كما حصل، على سبيل المثال لا الحصر، عندما فجّر نظام المخلوع حسني مبارك كنيسة "القديسين" في مدينة الإسكندرية عام 2011 في محاولة يائسة وبائسة لتأجيج الوضع الطائفي في مصر لكي يشغل الناس عن قضاياهم المشتركة، ويعرقل الحراك السياسي والعمالي المطالب بالإصلاحات السياسية والديمقراطية.

لهذا فمن الخطأ الجسيم أن تستمع قوى "المعارضة" والتغيير إلى من يطالب هذه الأيام سواء بحسن نية أو بسوئها بخروج المظاهرات والمسيرات الشعبية والاعتصامات عن سلميتها، أي مواجهة قوى الأمن التي تتعمد الاعتداء على المتظاهرين السلميين، فسلمية الحراك السياسي شرط لازم لنجاحه.

أضف إلى ذلك أن إصرار شباب التغيير الديمقراطي على سلمية حراكهم الميداني كما فعل، مثالاً لا حصراً، الشباب أثناء مسيرات "كرامة وطن" الشعبية الحاشدة عندما أعلنوا غير مرة تمسكهم بسلمية المسيرات واستعدادهم لتسليم أي شخص يتعمد إثارة أعمال الشغب لقوى الأمن، سوف يكون مثار إعجاب الرأي العام المحلي والدولي ومحل إرباك لقوى الفساد المعادية للتغيير، بل فضحاً لعملية استخدام العنف المفرط والاعتقالات العشوائية التي تقوم بها بعض عناصر الأمن الموجودة باللباس المدني داخل هذه المسيرات الذين اعترف بوجودهم فيها بعض قادة الأمن أثناء جلسات محاكمات الشباب المتهمين بقضية دخول مجلس الأمة.

من هذا المنطلق فإن المحافظة على سلمية الحراك الشعبي المطالب بالإصلاح السياسي والديمقراطي مهما كانت درجة الاستفزاز التي تتعمد القوات الخاصة ممارستها تدل، أي المحافظة على السلمية، على حضارة ورقي شباب التغيير الديمقراطي، فضلاً عن أنها شرط ضروري ولازم لنجاح الحراك الشعبي في تحقيق مطالبه السياسية المستحقة.

براين ماكليندون*

عصر ذهبي لعلم الخرائط

PROJECT SYNDICATE
AN ASSOCIATION OF NEWSPAPERS AROUND THE WORLD

إن نوي دياكوباما، المهاجر من جمهورية الكونغو الديمقراطية والذي يعيش الآن في باريس، يُعَد واحداً من الرواد الشجعان لهذا القرن، فباستخدام أدوات رسم الخرائط على شبكة الإنترنت، أنشأ أول خريطة لقريته مبانداكا، والتي عَدَّلها هو وزوجته أكثر من مئة ألف مرة منذ عام 2009، لقد وضع نوي قرية مبانداكا- وأهلها الذين يعيشون فيها- على الخريطة حرفيا.

ونوي ليس الرائد الوحيد في هذا المجال، فهناك مجموعة متنامية من راسمي الخرائط على الإنترنت، الذين يعملون على إنشاء خرائط مفيدة يمكن الوصول إليها بسهولة لمناطق أقل شهرة، وتحويل حياة الناس في هذه العملية.

في خلال عصر الاستكشاف، الذي امتد من القرن الخامس عشر إلى القرن السابع عشر، انطلق مغامرون مثل كريستوفر كولومبس، وفرديناند ماجلان، وجيمس كوك في رحلات محفوفة بالمخاطر إلى بلاد بعيدة، من نيوزيلندا إلى نيوفاوندلاند، يرسمون خرائط تفصيلية لرحلاتهم. ومن خلال تطوير المعرفة الجغرافية، أسهم هؤلاء المغامرون في توسيع نظرة الناس للعالم، وتحسين التجارة، والتمهيد لدخول عصر الثورة الصناعية.

واليوم، يأتي أشخاص مثل نوي في طليعة عصر ذهبي ثان لرسم الخرائط، وهو ما يَعِد بجلب فوائد اقتصادية واجتماعية لا تقل أهمية. وتغير شبكة الإنترنت الطريقة التي يتم بها إعداد الخرائط، على النحو الذي يمكن الناس العاديين- الذين يطلق عليهم وصف "رسامي الخرائط المواطنين"- من العمل جنباً إلى جنب مع المغامرين الشجعان وجغرافيين محترفين.

وباستخدام أدوات الإنترنت مثل مصمم خرائط غوغل، يساهمون في تحقيق الهدف المشترك المتمثل بإنشاء خريطة رقمية للعالم. حتى أن البعض يستضيفون "حفلات رسم الخرائط"، حيث تلتقي المجموعات وتلتف حول أجهزة الكمبيوتر، في فناء مدرسة أو قاعة كنيسة، لإضافة طبقات من التفاصيل التي تتجاوز التضاريس. ومن خلال ضم عناصر إنسانية، مثل المقاهي الشعبية أو مسارات التريض المحلية، يعملون على إنشاء أدوات شاملة مفيدة للآخرين، وتعزيز فهمهم لمجتمعهم.

ومن الممكن أن تكون الخرائط الرقمية ديناميكية بقدر ما تتمتع به المجتمعات التي تصفها من ديناميكية، ففي حين تستطيع الخرائط الورقية تقديم تصوير دقيق لمعالم ثابتة مثل الأنهار والجبال، فإنها غير قابلة للتحديث بسهولة عندما تقام بنايات جديدة، أو تمد الطرق، أو تفتتح مطاعم جديدة.

وعلى نحو مماثل، يمكن تفصيل الخريطة الرقمية لتلبية اهتمامات أو احتياجات فرد بعينه، وتؤثر تكنولوجيا رسم الخرائط الرقمية بشكل عميق للغاية في المناطق النائية وغير النامية من العالم، ففي إفريقيا على سبيل المثال، ارتفعت نسبة تغطية الطرق على خرائط غوغل من 20% في عام 2008 إلى 75% في العام الماضي، في حين ارتفع عدد المدن والقرى التي أنتجت خرائط تفصيلية بنسبة تتجاوز 1000%. ولم يكن هذا سبباً في تيسير التجارة والنقل فحسب، بل إنه يترجم أيضاً إلى زمن استجابة أسرع لخدمات الطوارئ، وإنقاذ الآلاف من الأرواح كل عام. الواقع أن الأدوات الحديثة مثل الخرائط والملاحة بالاستعانة بالأقمار الصناعية تساهم سنوياً في توفير نحو 3.5 مليارات لتر من البنزين وأكثر من مليار ساعة من زمن السفر، ونتيجة لهذا، أصبح المزارعون أكثر قدرة على الوصول بسلعهم إلى السوق قبل تلفها، وإنشاء شبكات ري أكثر كفاءة، مما يعني توفير نحو 8 مليارات إلى 22 مليار دولار للصناعات الزراعية سنويا.

إن الزخم المتزايد الذي تكتسبه حركة رسم الخرائط يَعِد بالتوصل إلى تمثيل دقيق وشامل لكل شبر من العالم تقريبا، بما في ذلك بيانات خاصة بالطرق، وصور، وقوائم الشركات. وهذا من شأنه أن يخلق فرصاً متزايدة للنمو الاقتصادي، ويساعد في تحسين القدرة على الوصول إلى خدمات الرعاية الصحية وغيرها من الخدمات، ويساهم في التنمية الاجتماعية، ويوسع نظرة الناس إلى العالم، مجازياً وحرفيا.

في محاولة لتطوير المعرفة الجغرافية بالعالم الذي نعيش فيه، تعوّد المستكشفون على الخروج إلى البحر، وتحمل أحوال جوية قاسية وأمراض منهكة، وكانوا على غير يقين بالأماكن التي يقصدونها، أو ما إذا كان بوسعهم أن يعودوا إلى ديارهم. وفي حين لا يواجه راسمو الخرائط على شبكة الإنترنت اليوم نفس المخاطر، فإنهم أيضاً ينطلقون في رحلة إلى المجهول بحثاً عن المعرفة، والإثارة، وحياة أفضل.

* نائب رئيس الهندسة في غوغل.
«بروجيكت سنديكيت» بالاتفاق مع «الجريدة»

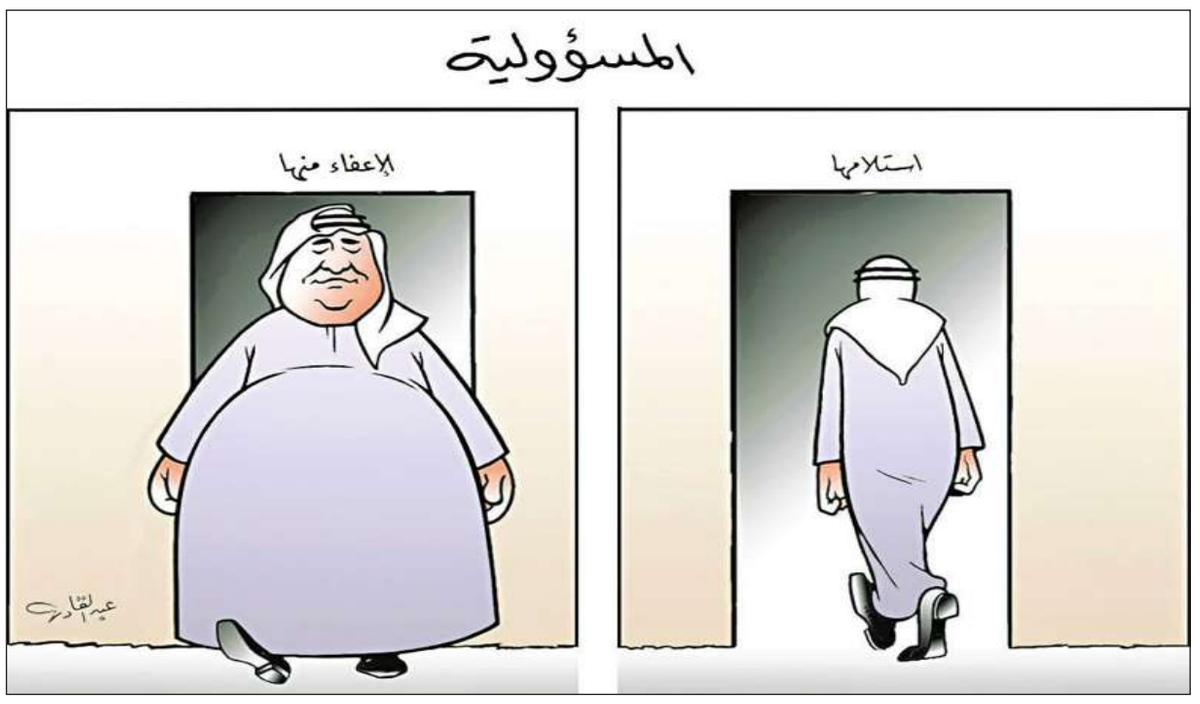

د. عبدالحميد الأنصاري*

أيام وليالٍ هنية في أجواء الجنادرية

بدعوة كريمة من سمو الأمير متعب بن عبدالله بن عبدالعزيز، رئيس الحرس الوطني، رئيس اللجنة العليا للمهرجان الوطني للتراث والثقافة، شاركت مع المئات من المثقفين والمفكرين والإعلاميين من مختلف دول العالم، في حضور فعاليات المهرجان الوطني السنوي المعروف بـ"الجنادرية" في دورته الثامنة والعشرين، وهو ملتقى سنوي حيوي: تراثي وفني وثقافي وفكري، يهدف إلى تعزيز المناعة المجتمعية والحفاظ على الهوية الوطنية عبر الربط بين التكوين الثقافي للمجتمع السعودي بالميراث الإنساني الكبير ومزج الموروث الأصيل بالإنجاز الحضاري المعاصر. لعل التساؤلات المطروحة: كيف تطور مهرجان الجنادرية الذي بدأ قبل 28 عاماً في القرية التراثية (الجنادرية) من أفقه المحلي، ليصبح مهرجاناً وطنياً عاماً مشهوداً يحرص على حضوره ما لا يقل عن 500 مثقف ومفكر من كافة أنحاء العالم غير ملايين الزائرين سنوياً؟!

إن لذلك قصة طويلة، وما تحقق اليوم، هو ثمرة نجاح لمسيرة طويلة من التخطيط الدقيق في مواجهة التحديات وتذليل العقبات، ومحصلة الإفادة من الدروس والتجارب السابقة ونتاج خبرات في تنظيم المهرجانات، وقبل كل ذلك، توافر الدعم والتوجيه المستمرين من قبل القيادة السياسية التي وضعت الإمكانات اللازمة في مختلف القطاعات الحكومية رهن إشارة القائمين على تنظيم هذا المهرجان السنوي، ولتتسابق جميع القطاعات الحكومية والأهلية والمجتمعية على المشاركة في نشاطاته وفعالياته بحماسة على إنجاحه.

لم يعد مهرجان الجنادرية مهرجاناً للمهن التراثية والصناعات اليدوية وسباقات الهجن والفروسية، والفرق الشعبية، والأعمال المسرحية، والأمسيات الشعرية، والأوبريتات الغنائية، والفعاليات الثقافية التقليدية فحسب، بل أصبح يواكب الحراك الاجتماعي والسياسي للمجتمع السعودي والمتغيرات حوله، ويتيح منبراً فكرياً لطرح القضايا الفكرية والسياسية المثارة في الساحة، ويتصدى لمناقشتها عبر فضاء مفتوح لكافة التوجهات السياسية والمذهبية.

ومن هنا يحرص القائمون عليه، على دعوة المفكرين والمثقفين بكافة توجهاتهم الفكرية والسياسية والمذهبية، بهدف إثراء الحوار، وتعزيز ثقافة التسامح وقبول الآخر، وترسيخه وتحقيق التلاحم الفكري المثمر، ولعل هذا التوجه المنفتح على الآخر السياسي والمذهبي هو ما يثير حفيظة أصحاب الاتجاه الفكري الواحد، فيحاولون الانتقاص من المهرجان وقيمته الفكرية والثقافية، كما يسعون عبر المقالات والمواقع الإلكترونية إلى تشويه إنجازاته والتشكيك بفعالياته وبرامجه.

يقول الكاتب السعودي عبدالرحمن الوايلي في مقالته: لماذا يكرهون الجنادرية؟! "الجنادرية تقوم بدور (القلعة) والحصن المنيع، للحفاظ على الذاكرة الوجدانية المجتمعية للسعودية وصيانتها، وحمايتها من عبث ونزق أيديولوجيا التسييس، وهؤلاء الذين يقفون ضد الفعاليات المدنية وعلى رأسها الجنادرية، هم نتاج مواقف أيديولوجية أو سيكولوجية مسيسة لا حمية دينية أو احتسابية".

لقد عشت أياماً وليالي حافلة وهنية في رحاب فعاليات الجنادرية وأجوائها، سواء في أروقة وقاعات الفندق الذي احتضن الندوات الثقافية والأمسيات الفنية والشعرية، أو في "لوبي" الفندق الذي جمعني بالعشرات من المثقفين مختلفي المشارب في حوارات فكرية ممتدة إلى ما بعد منتصف الليل، أو في الزيارات التي قمنا بها لقرية الجنادرية التي تبعد 80 كم عن الرياض.

لن أتحدث عن الندوات الثقافية، فقد تكلمت عنها في مقالات سابقة، لكني سعدت بحضور العنصر النسائي ومشاركته الفعالة في هذه الندوات، والتي لاقت استحساناً كبيراً من الحضور، إنه تطور اجتماعي مذهل، لكنه متدرج وحكيم ومتوازن ومحكوم بضوابط شرعية وأعراف مجتمعية.

سأتحدث عن مشاهداتي في القرية التراثية (الجنادرية) وكم سعدت بها، استمتعت بمشاهدة مهن وطرق يدوية قديمة ما زالت مستمرة منها: صناعة تقطير الورود واستخراج دهن العود والحفر على الخشب والتطريز وحياكة السدو والعقال والمشالح والصوف، وصناعة الأسل والخوص (الحصر، السفرة، المهفة، المخرفة) والأقفاص والسبح والفخار والسفن ومهنة الطواشة، ورأيت الصفار والحداد والخراز والسمكري وكيف يعملون، هناك أكثر من 300 مهنة وصناعة يدوية قديمة ضمن الفعاليات.

عشت لحظات سعيدة في "المزرعة القديمة" وهي مزرعة متكاملة تعرف الزوار بنمط معيشة الفلاح والمزارع قديماً، بدءاً بكيف يبني بيته من الطين والحجارة، وكيف يستخرج الجص ويحرق ويدق ويحرث الأرض ويبذرها ثم عملية السقي وفصل الحبوب عن السنابل "بالدياسة" أي مجموعة من الحمير أو الأبقار تدور وتدوس على المحصول لفصله وهرسه.

وقفت ومعي كثير من الزوار مستمتعين، بمشهد رفع المياه من الآبار عن طريق الإبل، تشد الحبال والدلاء (القرب الجلدية) على السواني (عجلات خشبية) تدور وتصدر صوتاً رتيباً يذكرك بزمن البساطة والنقاء فيشدك الحنين إلى الماضي الجميل.

قصدت الجناح القطري الذي احتل موقعاً متميزاً في السوق الشعبي وجلست مع الإخوة المشرفين، وأمامنا طاولة كبيرة وضعت عليها المطبوعات القطرية، وجدت إقبالاً كبيراً من الإخوة السعوديين للحصول عليها، وكلهم يبدون إعجابهم بقطر ودورها، يحملون صورة جميلة عن قطر، أسعدني ذلك وشعرت بفخر كبير عندما قدمت الفرقة الشعبية القطرية، العرضة القطرية، اهتزت الأرض طرباً وجاء خلق كثير يشارك ويغني، وامتلأ الفضاء بالأهازيج الحماسية. وجدت ترحيباً كبيراً أينما حللت وعرفوا أني قطري، دخلت جناح الجمعية السعودية للمتقاعدين، وجدت الشباب شعلة حماس في خدمة المتقاعدين، طلبت نسخة من مجلة الجمعية (المتقاعدون) وما إن عرف مدير العلاقات العامة محمد الطفيلي الزهراني، بأني جئت من قطر حتى هب مرحباً وأصر على أن أسجل كلمة في سجل التشريفات، وحرص على التقاط صور معي.

زرت أجنحة دول مجلس التعاون وأعجبتني أنشطتها، وتذوقت الحلوى العمانية، لكن أكثر ما أعجبني، جناح المؤسسة العامة للتدريب التقني الذي يقدم دورات تدريبية قصيرة (ساعتين) في مجالات: التطوير الرقمي، القراءة السريعة، الخريطة الذهنية، التمديدات والحماية الكهربائية، صيانة الجوال والسيارات، وهناك دروس تقدم للزائرات: فن العناية بالشعر والتسريح والتجميل والمكياج، وفن تغليف الشوكولاتة والتصميم وإنتاج الملابس وهناك ركن الموهوبين واختراعاتهم.

كما يقوم خبراء مهنيون بتقديم شروح للزوار في التوعية المهنية والتقنية: في صيانة الحاسب، والسلامة المنزلية من أخطار الكهرباء، والتبريد والتكييف، وأمن المعلومات، والنجارة، والتغذية وغيرها، وهو نمط من النشاط. ويستقطب المهرجان أعداداً هائلة من الزوار، أراه شديد الأهمية والفائدة وأتمنى تعميمه والاقتداء به في كل المهرجانات والفعاليات التراثية والشعبية الخليجية لدول مجلس التعاون. لاحظت أن كافة المناطق السعودية ممثلة بموروثاتها الثقافية المتميزة وبمهنها وصناعاتها، كذلك فإن كافة مؤسسات الدولة وجامعاتها وهيئاتها موجودة ومنها: هيئة حقوق الإنسان، والهيئة الوطنية لمكافحة الفساد، وقد استفدت من كتيباتهما ومطوياتهما التي تقدم للزوار مجاناً، ودول مجلس التعاون وجدت بفنونها وموروثاتها الشعبية، وعرفت أن "اليولة" الإماراتية حظيت باهتمام وتفاعل الزوار.

"الجنادرية" قصة نجاح كبيرة، بدأت بفكرة في ذهن خادم الحرمين الشريفين الملك عبدالله، بإقامة مهرجان للحفاظ على التراث الوطني الأصيل، وتطورت لتصبح مهرجاناً وطنياً عاماً يستوعب كافة الموروثات والخصائص المتميزة لكافة مكونات المجتمع السعودي ومناطقه في اجتماع سنوي، وفي مكان واحد يؤلف بينهم وينقل للأجيال الجديدة الموروث الأصيل، ما يزيدهم اعتزازاً وثقة بأنفسهم.

ختاماً: لقد تطورت الجنادرية وأصبحت فعالياتها أكثر تنظيماً ووهجاً، وكانت محل ثناء وتقدير ورضا كافة الزوار الذين بلغوا (6) ملايين زائر، فتحية للقائمين عليها متنمياً مزيداً من التطوير والنجاحات... لقد أسدلت الجنادرية ستارها لكن ذكرياتها ووهجها باقيتان.

* كاتب قطري